البحث الثالث

أصل العقيدة وتطورها

تدور مبادئ العقيدة حول المعبود ، فهو مركزها... بل هو مصدرها ؛ إليه يتوجه العابد، ومنه يتلقى الأوامر والنواهى ، ومن أجل رضاه ينفذ كل مايصدر ، وطمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه يمارس طقوس العقيدة ، حسب ما يتصور أنها أوامر منه .

ومن هنا كان على الباحثين فى مجال العقيدة ، والمشتغلين بالدراسات الدينية أن يبدءوا بالبحث عن هوية المعبود ..... ماهو ؟ وكيف هو ؟ .... طبيعته ، ومجال قدرته ، وآفاق تأثيره. ولما كانت طبيعة المجتمعات مختلفة : فى تراثها الفكرى ، وطبيعة تقاليدها ، ونظرتها للوجود، وفهمها للحياة .... تباين تصورها للمعبود ، فاختلفت نظرتها إلى كنهه ، وتكوينه ، ومدى قدرته فى هذا الكون ، سواء كان بالنسبة للطبيعة وظواهرها، أوللإنسان وعلاقته بمن – وما – يحيط به : من جمادات ، وكائنات حية تُشَكِّل الوجود حوله ، وتتفاعل معه فى مجال نشاطه الاجتماعى ، والاقتصادى ، والسياسى ، بما يتضمنه من مبادئ وأخلاق .

تواجه كلمة " الألوهية " الانسان البدائى فى كل أنشطة الحياة ، غير أنها لاتحتاج فى مفهومها إلى الاقتران بشخص ، كما هو الحال فى كلمة "مانا " ، فقد جاء فى المعجم العلمى الذى ألفه " ف ر. ليمان F. R. Lehmann " أن كلمة "مانا " يقترب تصورها فى فكر البدائى من كلمة " تابو " ، ولم يكن السبب فى هذا وجودها فى منطقة المحيط الهادى – كما هو الحال فى كلمة " التابو " – ، بل لأنه يتردد ظهورها فى كل الأديان بأشكال وصيغ مختلفة ، فتصورها عند البدائى يقترن بشخص ، ومن هنا لايمكن للمرء أن يوضحها بدون كائن حىّ تضاف إليه ، فهى مثل الروح لاتنفك فى مفهوم البدائى عن جسم تحل فيه .

كما لا ينبغى تفسيرها على أنها عناصر سحرية مركبة ، ولايجوز فهمها على أنها فوق الطبيعة، أو أنها ليست نهائية. وزيادة فى وضوح مفهومها يمكن أن نقارنها بالتنفس الذى يخرج من الإنسان ، أو بالخيالات المقدسة التى يتصورها الإنسان فى محيط معيشته. وقد ظهر هذا المعنى بأسماء مختلفة فى الأديان، مثل :" براهما " فى الديانة الهندية، و" التابو " فى جزر المحيط الهندى، و" كامى Kami " عند اليابانيين ، و" مانيتو Manitu "

عند الهنود الحمر، و " أوراندا Orenda " عند" ايروكيزين Irokesen " ، و " فاكوندا Wakunda - عند الهنود الحمر.

يعتقد البدائى بأن " المانا " وما شابهها، لديها قوة جبارة ، تحميه وتساعده ضد كل الأخطار التى تصادفه فى نشاطه المعيشى ، فالفلاح يرى أن هذا المقدس – "مانا " وما شابهه فى الأديان الأخرى – قادر على تزويده بالقوة التى تمكنه من التعامل بشكل صحيح مع الأرض التى يزرعها ، وتعينه على التصدى بعزم وقوة لكل ما يضر حقله ، أو يتلف زراعته ، سواء كان ذلك بواسطة الهواء أو الشمس أو الأرض ، بحيث تسلم هذه المزروعات إلى وقت الحصاد.

وبالنسبة للصياد تمده " المانا " بما يمكنه من استخدام آلات الصيد بشكل جيد ، وترشده إلى أماكن وجود السمك ، وتحول دون هروب الصيد من شباكه ....

كما تمد الطبيب بوسائل شفاء مرضاه ، وتمنح الأمير قوة تمكنه من السيطرة على رجاله ، وتعينه على الظفر بأعدائه ..... وهكذا يعتقد البدائى أن تلك القوة الخفية تساعده فى أعماله ، وتحفظه من الشرور المحيطة به ، وتؤازره فى مواجهة أعدائه ... ولهذا فهو يضع نفسه رهن إشارتها ، ويؤدى الطقوس التى تجعلها راضية عنه ، حتى يطمئن إلى حمايتها ، ويأمن شرها .

تشيع هذه الفكرة بوجه عام لدى كل الشعوب رغم اختلاف تصورها لهذه القوة ،وتعدد أسمائها باختلاف الشعوب والأعراق ، وتباعد الأماكن الجغرافية بعضها عن بعض، فهى تتفق فى :

- الإيمان بقوة غيبية .
- حلول هذه القوة فى شخص ، أو حيوان ، أو نبات ، وأحياناً فى جماد ، أى أنها تبدو فى ظواهر مرئية .
- قدرة هذه القوة اللامحدودة فى تصريف الأحداث المحيطة – والمتعلقة – بالإنسان ، وكذلك تبديلها.
- محاولة الإنسان التزلف إلى هذه القوة ، بممارسة الطقوس التى ترضى عنها حسب مايعتقد البدائى ليأمن شرها ، ويُنال خيرها .

غير أن تصور هذه القوة اختلف من بيئة لأخرى ، ومن شعب لآخر ، بل داخل القبيلة الواحدة تعددت صور هذه القوة . وبحكم اتصال هذه الشعوب ببعضها ، تداخلت الصور ، فتعددت الآلهة ، وأصبح

لكل إله مهمة خاصة يقوم بها ، فهناك إله للمطر ، وآخر للريح والرعد والبرق ، وثالث للخصوبة .... حتى كان هناك إله للحب .

اعتقد البدائى أن هناك وحدة تجمع هذه الآلهة ، فاعتقد أن لها مجلساً تتشاور فيه فى شئون الخلق ، وبالتالى تقرر مايجب عمله فى مظاهر الطبيعة وظواهرها ، وما ينبغى تنفيذه بالنسبة للأفراد والشعوب . ويمكن أن يعبر عن هذا التصور البدائى بأن هناك وحدة بين الآلهة ، تبدو فى خلفية فكر الإنسان الأول ، فعبر عنها بصيغ مختلفة ، وظواهر مرئية متعددة ، يجمعها إله واحد ، أطلق عليه اسم : " الإله الأعلى " على أن هذا الكائن الأعلى ، بالرغم من الإيمان به قلبياً ، لايُعبَد بالضرورة فى الحياة التقليدية للعائلة أو القرية ، فهو غير شخصى ، وبعيد. وفى أحسن الأحوال هو الملجأ الأخير للعابد ، فهو يعتقد أنه منبع القوى الحيوية التى يستمد منها كل الآلهة قوتهم ، وهو فى الفكر البدائى فوق التشخيص ، وإن كان يُنسَب إليه بعض الصفات الشخصية فى أضيق الحدود ، وكلما قلت الصفات الشخصية ، التى تُنْسَب إليه ، كلما ازداد رفعة ومكانة عند العابد .

ومن الممكن أن تتضاءل التعددية الإلهية ، عندما يظهر الشكل الواحد للمعبود تحت مسميات متعددة، وغالباً مايكون هذا فى أشكال ذات صلة قريبة من بعضهم فى التصور والتأثير فى الأحداث .

وأحياناً تظهر الوحدة فى الطقوس كما هو الحال عند التِّبت ، حيث تجمع كل صور الآلهة الموجودة فى المنطقة بصورة تبدو وكأنها تستمد حياتها وقوتها من الإله الأكبر .

ولا تقتصر العبادة على الطقوس التى كان يؤديها الإنسان الأول للمعبود ، بل شملت الطاعة المطلقة لأوامر المعبود ، وكذلك اجتناب نواهيه ، فهو فى نظره " مقدس " أى " تابو".

فما معنى التابـــو ؟

هى كلمة بولينيزية أصلها فى هذه اللغة " Tapu " ، اكتشفها الرحالة الإنجليزى "جيمس كوك Jemes Cook " فى الجزر الواقعة فى المحيط الهادى ، وذلك فى عام١٩٧٧م وهى من الكلمات التى يصعب ترجمتها ترجمة دقيقة ، ولذا أصبحت مصطلحاً علمياً فى الكتابات "الأنثروبولوجية " ، والاجتماعية ، ولدى علماء الأديان فى جميع اللغات ، ويقصد بها الأشياء المقدسة ، وكذلك الأشخاص الذين لايجوز لأحد الاقتراب منهم ، وإلا عرَّض نفسه للخطر ، كما يقصدبها الأشياء ، أو الأشخاص الدنسة ، أو النجسة الذين لايجوز لاقتراب منهم – أو منها – أيضاً ، وإلا أصيب بشيئ من هذه الدناسة أو النجاسة ، وفى كلتا الحالتين – سواء كان المنع من الاقتراب للقداسة أو الدناسة – ينال العقاب من يخالف هذه التعاليم .

ويرى " Nölle " أنها– أى كلمة "التابو "– تؤدى معنى كلمة "Mana " (أى الطاقة السحرية) ، إذ يلاحظ كلا المعنيين فى تصور المقدس (التابو) لدى الشعوب البدائية. ولا يقتصر تحريم الاقتراب على الأشياء ، أو الأشخاص المقدسين – لأن لديهم الطاقة السحرية، أو تكمن فيهم القوة الغيبية – بل تتناول كل ما حرمه الكاهن فى المجتمعات البدائية ؛ فتصان حرمة رئيس القبيلة ، طبقاً للعادات والتقاليد الدينية ، كما يحرم لمس الحائض والنفساء ، وكذلك الميت ، وإلا لحق الضرر من يخالف هذا .

وعليه يكون معنى " التابو ": لايجوز فعل كذا .... أو لاينبغى الاقتراب من كذا ... إما لقداسته ، أو لدنسه ونجاسته .

ويرى " فرويد Freud " فى كتابه عن " الطوطم والتابو " ، أن أقرب ترجمة للكلمة هى : " الخوف المقدس " لأنها تجمع بين خاصية القداسة ، التى تتمتع بها الأشياء – التى تعتبر "تابو " – وبين التحريمات والقيود ، التى تُفْرَض على الناس إزاء هذه الأشياء ، كتحريم لمس الحائض والميت ... وغيرهما من المحرمات .

وتختلف قيود " التابو " عن قيود العادات والتقاليد الاجتماعية ، فى أن الأخيرة لاتصدر عن أمر إلهى، ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم ، كما تختلف عن النواهى الأخلاقية ، فى أنها لاتدخل ضمن نظام متماسك يبرر لنا هذه التحريمات ، ويبين أسبابها وأصلها ، ولذا فإن قواعد التحريم فى " التابو " تُقْبَل على علاتها كأمر لامفر منه .

ويعتقد بعض " الأنثروبولوجيين " أن " التابو " هو أقدم قانون غير مكتوب للجنس البشرى. وتحريمات "التابو" تحريمات قاطعة ، ولذا فإن خرق " التابو " يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة والجزاء ضمنياً، وإن كانت هناك حالات يتولى المجتمع ذاته توقيع العقوبة على المعتدى فيها ، على اعتبار أن خرق " التابو " يُلْحِق الأذى ، ليس بالشخص المعتدى وحده ، وإنما بالمجتمع ككل ، وجعله هو نفسه – أى المجتمع – " تابو " ، أى مصدر للأذى، لأن للتابو القدرة على الانتقال من شئ لآخر ، ومن شخص لآخر .[59]

ولكن ، كيف بدأ تصور الإنسان الأول للمقدس – أو لـ " التابو " أو للمعبود – وبالتالى ، كيف نشأت العلاقة بين الإنسان " العابد " وبين هذه القوة الغيبية ، التى أُطلِق عليها فيما بعد: " الإله" ؟

---

[59]) أنظر فريزر صـــ ١٣٠

تكـــاد تكـــون فكرة الإله الأعلى موجودة لدى جميـــع القبائـــل كـــ " الزولو " بجنوب إفريقيا ، و" الأشانتى " بساحل العاج ، و " اليوروبا " بنيجيريا ، و " البركونجو ، بأنجولا ، و" النجومية " بجمهورية الكونجو . بل إن لدى الأقزام – وهم أقدم سلالات إفريقيا – كائناً أعلى يطلقون عليه اســـم " مونجـــو "، وهم يلتمسون منه الفوز بالصيد ، كما لايأكلون بكر الثمار قبل أن تُطْرَحَ فى الغابة باسم " مونجو " .

ويقول القزم حين يطرحه : " مونجو ! هذا لك ". ويخص بكر المحصول له ، لأنـــه خلـــق أشـــجار الفاكهة ، وساعد على نضوج ثمرها. وإلى هذا الكائن الأعلى يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء ، وأنهـــا ترجع إليه .

وفى قبائل " اليوروبا " فى غرب نيجيريا يُطْلَق على الإله الخالق : الأب ، والسيد ، والعظيم ، مالك النفس ، أو الروح ، وأصل العظمة ..... ويعتقدون أنه خالق كل شيئ ، والقاضى علـــى النـــاس ، الآن ، وبعد المـــوت ، المحافظ على القوانين الأخلاقية . كما يطلق عليه أسماء كثيرة ، غير أن أكثره شيوعاً هـــو : " أولورن " التى تعنى : مالك الجنة .

لماذا إذاً لايعبد البدائيون هذا الإله الأعلى وحده ؟

يجيب على هذا بعض الباحثين بأن البدائى يعتقد أن من الغباء إهمال القوى الأقل شـــأنا مـــن الإلـــه الأعلى ، لأنها أكثر قرباً منه ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالى قد تسبب له متاعب أكثر من الله العظـــيم ، كمـــا يمكنها أن تكون أكثر خدمة فى حالة الأزمات .

قال أحد أهل هذه العقيدة :

"إننا نقدم القرابين للآلهة الصغيرة ، ولكن حين لايفلحون فى إجابة مطالبنا ، نلتجئ إلى الإله الأعلى ، وهذا هو الحق ، إننا نقترب من رجل عظيم عن طريق خدمـــه ، ولكـــن حينمـــا لايفلـــح الخـــدم فى أداء مأموريتهم ، نلجأ إلى آخر معقل للأمل .

من أين استمد الإنسان الأول اعتقاده فى وجود آلهة قريبين منه، يلجأ إليهم عند الحاجة ، ويسألهم العون عند الشدة ؟

المذهب الروحى

انقسم العلماء فى إجابتهم على هذا السؤال إلى قسمين: قسم ذهب إلى أن الدين مسألة فردية ، بينما ذهب الفريق الآخر إلى أن الدين ظاهرة اجتماعية ، وبالتالى اختلفوا فى مصدر اعتقاد البدائى فى وجود القوة الغيبية.

فالذين نظروا إلى الدين على أنه مسألة فردية ، أى أنه شعور فردى ينبع من داخل الإنسان كفـــرد ، رأوا أن العقيدة فى هذه الآلهة تولدت من اعتقاد الإنسان فى وجود الروح ، وجاءه هذا الاعتقاد من تجاربـــه الشخصية ؛ ذلك أنه لاحظ أن حياته مزدوجة فى يقظته ومنامه ، فتصورهما على أنهما حياتان مختلفتان " فما يراه فى نومه – أى فى حلمه – إنما هو تعبير عن حياة حقيقية قضاها ، لها كل مقومات الحياة التى يمارســـها أثناء اليقظة ، فحين يحلم أنه زار بلاداً بعيدة ، يعتقد عن يقين أنه زارها • ويستخلص من هذا أنه يوجد فيه كائنان :

أحدهما : الجسد، وهو الكائن الملتصق على المكان الذى نام فيه ، وله صفات مادية مـــن تحيـــزه فى المكان وعدم انتقاله .

وثانيهما : كائن آخر له قدرة على التنقل من مكان إلى مكان ، فى الوقت الذى يكون الكائن الأول – وهو الجسم – ساكناً فى حالة النوم. ومن التجارب المتعددة التى تحدث للبدائى فى نومه ، وما يراه فيه من أحلام ، ومن ملاحظته أن من يقابلهم فى حلمه ، لهم أيضاً أجسام بعيدة ونفوس قريبة منه ..... من هـــذا كله ثبت له أن فيه كائناً آخر غير الجسم ، يستطيع – فى ظروف معينة – أن يترك هذا الكـــائن العـــضوى الذى يسكن فيه ، وأن ينطلق بعيداً عنه ". [60]

" وليس المقصود بالروح هنا مبدأ الحياة الحيوانية ، أعنى تلك القوة التى تقوم عليها وظائف النمـــو ، والتنفس ، والحس ، والحركة ، بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك ، هو مبدأ حيـــاة الـــتفكير ، والإرادة المنظمة ، والعاطفة ، والضمير ، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة ".

عندما استقر فى ذهن البدائى وجود هذه الروح ، وأنها قادرة على الانفصال عن الجسد أثناء النوم ، تبادر إلى ذهنه إمكانية انفصال هذه الروح عن الجسد عند الموت ، وبقائها حية ، على الرغم مـــن انعـــدام جسد صاحبها ، وبالتالى يمكن أن تعود الروح إلى جسد صاحبها مرة أخرى ، ومن هنا نشأت فكرة عودة

---

[60] النشار : صـــ ٣٤ – ٣٥

الميت إلى الحياة ، كما اعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الروح تقوم بأعمال خارقة ، لم تكن فى قدرتها أثناء وجودها فى الجسم ، " ذلك أن انتقال العنصر الروحى من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ليس من شأنه حتماً أن يضعف سلطانه ؛ بل من المعقول أنه يزيده قوة ؛ لأن الروح فى عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتدبيره ، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات . ولذلك ليس من حقها فى هذه الحال أن تُسَمَّى روحاً مسيطرة " ESPRIT " ، وإنما هى نفس مسخرة " âme " . فإذا ماقدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم ، أو بالموت ، أوبسبب آخر ، أصبحت جديرة باسم "الروح"، وأضحت أوسع مجالا، وأملك لحرية العمل فى الميدان الذى تختاره : إن نفعاً أو ضراً ، من حيث لايشعر بها أحد". [61]

ولذلك يخشى البدائى من أعمال أرواح أسلافه ، فيحاول استرضاءها ، كى يتقى شرها ، ويتزلف إليها حتى تكون عوناً له فى مواجهة الشدائد ، " ففى (بوين Buin) تتدخل أرواح الموتى فى حياة الناس ، فتعمل على نجاحهم ، أو فشلهم ، لذلك يتوجهون إلى الأسلاف لكى يحصلوا على عونهم ... فيحملون إليهم القرابين ، وينحرون الضحايا ..... لأنهم يعتقدون أن الموتى يشيدون المنزل ، ويزرعون حقول الأرز ، ويقاسون جميع المتاعب التى تتطلبها حياة العمل ، ويجرى عليهم ما يجرى على الأحياء من عدم التكافؤ فى الفرص . وهم يرون أن الموت لايقطع بالضرورة تلك العروة التى تجعل أفراد مجموعة ما ، يتبادلون المساعدة فيما بينهم ، كما لو كانوا يتبادلونها وهم على قيد الحياة . فيستطيع الحى أن يساعد الميت ، ويزوده بالأغذية والأشياء الضرورية الأخرى ، ذات الخصائص السحرية ، والتمائم ، والطلاسم بجميع أنواعها ، ليساهم فى عملهم ". **فما كنه هؤلاء الموتى الذين يعتبرون أحياء ؟**

من العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نكوِّن عنهم فكرة مرضية ؛ إذ أن هذه التصورات تختلف من جماعة إلى أخرى ، تبعاً لتكوينها ، ودرجتها من التقدم .

يضاف إلى ذلك أن البدائيين فى كل مكان تقريباً يعتقدون أن الميت الحديث يمر مراً سريعاً بعدة حالات انتقالية ، قبل أن يصل إلى حالة نهائية نسبياً ، لايخرج منها إلا بموت جديد ، أوبعودته إلى عالم الأحياء. وكثيراً ما تتعارض هذه التصورات فيما بينها. ونحن نعرف أنها شديدة الارتباط بالناحية الانفعالية ، وأن العقلية البدائية لاتهتم بالتأليف المنطقى إلا قليلاً ، وأننا فى نهاية الأمر لانجد فى أى هيئة اجتماعية بدائية مجموعة من التصورات ترجع إلى زمن واحد ، وتُكوِّن نظاماً مؤتلفاً ، فكل مالدينا منها يجعلنا نظن أن بعضها جد قديم ، وأن البعض الآخر جاء متأخراً فاختلط بذلك الرصيد الأول على مر القرون ، دون أن يكون

---

[61]) دراز: ١٣٦.

ملائماً تمام الملاءمة . فليس أمامنا إلا نوع من المزيج المختلط ، أو الكل المعقد ، الذى يصعب علينا تحليله ، صعوبة معرفتنا لطبقات قطعة من الأرض لايُرى منها إلا سطحها .

هذا الغموض الشديد الذى يحيط بطبيعة التصورات نفسها ، يزداد غموضاً على غموض بين أيدى الباحثين الذين ندين لهم بمعرفتها ؛ إذ أنهم يجمعونها ، وهم متأثرون بأفكارهم السابقة المتصلة ببقاء الروح وخلودها .

لذلك لايحسبون أى حساب للفرق الذى يفصل بين تفكيرنا التصورى المعنوى ، وبين تفكير البدائيين البعيد عن ذلك كل البعد ، فتأتى ملاحظاتهم بعد هذا التزييف الذى اعتراها ناقصة إلى حد كبير وغير مفيد فى غالب الأحوال . وذلك لأن كلمة روح " âme " من جهة ، والفكرة السائدة عندنا عن علاقة الروح بالجسم من جهة أخرى ، يسببان نوعاً من الخلط يستعصى على الحل . ولما كان قانون المشاركة يتحكم فى التصورات الخاصة بالتعامل بين الأحياء والأموات ، كان الأموات يعتبرون حاضرين بالرغم من أنهم غائبون ، وكانت أرواحهم مندمجة فى جثثهم التى تتحلل بالرغم من استقلال الأرواح عنها ؛ فلا تكاد تنقضى بضعة أيام على موت الفقيد ، حتى يكون فى آن واحد موجوداً فى قبره ، وبجوار المنزل الذى مات فيه ، وبعيداً عنه فى طريقه إلى إقليم الظلال ، إذا لم يكن قد وصل إليه بالفعل .

أما الأشخاص الذين كانوا فى حياتهم يحتلون مكاناً مرموقاً ، ويشغلون وظائف هامة ، فإنهم يستمرون فى ممارستها ، بالرغم من أن غيرهم قد خلفهم فيها. فيعتقد كثير من قبائل " البنتو " مثلا أن رؤساءهم المتوفين يظلون يحمونهم عند الحاجة ، ويوفرون لهم المطر ، وينظمون اطراد الفصول كما كانوا يفعلون من قبل ، وكثيراً ما يظلون مالكين لماشيتهم ، التى لايجوز لأحد التصرف فيها ، ولهذا يوكّلون بها حراساً يحرسونها . وفى العادة يتبعهم فى عالمهم الآخر بعض نسائهم ، وعبيدهم ، وبعض الأشياء التى تحمل طابعهم الشخصى ..... وعلى كل حال يُعتَبر الأموات بوجه عام ، على اختلاف درجاتهم ، جزءاً متمماً للهيئة الاجتماعية لدى البدائيين. ولا يحس الفرد من أفراد الهيئة الأحياء بأنه منفصل عنهم تمام الانفصال ، بل تظل عليه الالتزامات نحوهم ، ولايدهشه من أمر هذه الالتزامات شيئ إلا إذا فرضنا أنه يدهش أيضاً من التزاماته نحو الأحياء .

فالتصور الطبيعى لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصرى المادة والروح، يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبيئته : فتعود المادة إلى عالمها ، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبى . وهكذا ينشأ الاعتقاد

بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان .[٦٢] ذلك أن انتقال العنصر الروحى من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ليس من شأنه حتماً أن يضعف من سلطانه ؛ بل من المعقول أنه قد يزيده قوة ؛ لأن الروح فى عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتدبيره ، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات. ولذلك ليس من حقها فى هذه الحال أن تسمى روحاً مسيطرة "esprit" وإنما هى نفس مسخرة "âme". فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر ، أصبحت جديرة باسم " الروح "، وأضحت أوسع مجالا ، وأملك لحرية العمل فى الميدان الذى تختاره : إن نفعاً أو ضراً ، من حيث لايشعر بها أحد .

وقد أطنب الأستاذ " ماينهوف Meinhof " فى الحديث عن تحول الأموات التدريجى إلى أسلاف ، فقال: " بعد زمن ما تفقد النفس خصائصها البشرية شيئاً فشيئاً وتصير روحاً ، وحينئذ تصبح هذه الأرواح موضوعاً لعبادة حقيقية ، وتعتبر صديقة أو عدوة على حسب استعداداتها. وتصير تلك الأرواح التى ذابت بعضها فى بعض ، فى نظر أهالى أفريقيا الاستوائية ، قوة مروعة ، توحى بالخوف الشديد . وتسميها قبائل الشمبالا : " موزيمو Muzimu " ، وليس لهذه " الموزيمو " شخصية الكائن البشرى ، كما أنها ليست روح رجل معين ، إنها القوة التى تبعث بكل المصائب ، والتى لابد من العمل على تهدئتها ".[63]

وعليه فيمكن القول بأن الاعتقاد فى الأرواح ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن فى الوجود كائنات عاقلة لايقع عليها الحس ؛ سواء أكانت فى الأصل أرواحاً إنسانية أم كانت روحاً أعلى من ذلك وأسمى .

الثانى : أن هذه الكائنات الغيبية ، المزودة بتلك القوة الخارقة ، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة .

---

[62]) يرى "تايلور Tylor " أن ملكة الاستحياء "Animism " هى أصل الاعتقاد بالأرباب ؛ فالطفل يضرب الكرسى إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل فى تخيله للأشياء وتمثله لها فى صور الأحياء ...فالنجوم أرباب حية تشعر وتسمع وتطلب مايطلبه الحى من غذاء ومتاع ، وكذلك الرياح والسحب والينابيع والعوارض الطبيعية على اختلافها . فلا جرم يشعر الهمجى الأول بما حوله من هذه القوى الحية شعور الرهبة والرغبة ، ويحتاج إلى استرضائها بالصلاة والدعاء كما يسترضى الأقوياء من بنى قومه بالملق والرجاء . ويسبق هربرت سبنسر هذا التفسير بتفسير يوافقه فى ظواهر الاستحياء ولا يوافقه فى تعليل الاستحياء ؛ فالإنسان الأول – على مايرى سبنسر – كان يؤمن بحياة الأرباب لأن عبادة الأسلاف هى أقدم العبادات ، وكان يرى الأطياف فى المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى ، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم بقيد الحياة . [العقاد : ١٦ – ١٧]

[63]) راجع : ليفى بريل صـ ٧١ ، ٧٥ ، ٨٣

ويتوجه البدائى إلى هذه القوة بالصلوات والأدعية ، " وقد شرح الأستاذ " جونو Junus" طبيعة الصلاة الدائمة التى توحد بين القبيلة وأسلافها ، وهى تقوم على قاعدة المشاركة مضافاً إليها الإحساس بوجود قوة عليا لدى الأسلاف ، إذ يعتقدون أنه يمكن رجاؤهم ، والتوسل إليهم بتقديم القربان لهم ، ولكن لايمكن إرغامهم بصورة ناجعة .

فإذا مانجح هذا القربان فى إرضاء الآلهة (يعنى الأسلاف) وهبوا أحفادهم محصولاً وافراً (لأن نمو الثمار الطبيعية ونضوجها يتوقف عليهم) ، وصرحوا لهم بقطع الأشجار ، وفى هذه الحالة يضمنون ألا تسقط عليهم الجذوع الضخمة فتسحقهم. أما إذا ذهبوا لقطعها دون إذن الآلهة ، لم يكن هناك مفر من وقوع بعض الحوادث. وإذن ، فمنع الشر هو الغرض الجوهرى من تقديم الضحايا ، وإعطاء الطعام للأرواح وإغداق الهدايا عليهم .... كل ذلك من شأنه أن يحملهم على جعل الأشياء تسير فى طريقها الطبيعى السعيد، وعلى منع النكبات من أن تعكر صفو الرخاء الشامل . وهناك أيضاً ضحايا تكفير ، يقصدون بها التلطيف من حدة غضب الأرواح ، وضحايا أخرى يقصد منها إنهاء بعض المعارك بواسطة الصلح ..... وهلم جرا ". [64]

تلك هى فكرة النفس التى انتقلت من مبدأ حيوى فى جسم الإنسان ، إلى أن أصبحت روحاً ، أو قريناً ، خيراً أوشراً ، أو إلهاً ..... ولكن إذا كان الموت هو الذى حوّل تلك النفس الإنسانية إلى روح مقدس ، فإن أول عبادة إنسانية ، إنما اتجهت إلى الموتى .... إلى نفوس الأسلاف ..... وكان الطقوس الأولى طقوساً للموت ، وكانت أولى التضحيات قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى. وكانت أولى المذابح التى تقدم عليها القرابين ..... هى القبور واللحود .

هذا مجمل ماقاله العلماء حول تفسير ظاهرة عبادة الأسلاف . [65]

---

[64]) المصدر السابق صـــ ٨٤ - ٨٥

[65]) أشار علماء الإسلام إلى عبادة الأسلاف فى معرض تفسيرهم لعبادة الأصنام ، فقد قال البخارى . حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام عن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعده : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث لمراد ، ثم لبنى غطيف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كلاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك ، ونُسخ العلم عُبدَت .

(ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـــ ٧ صـــ ١٢٦

ولكن كيف نشأت عبادة الأشجار والأحجار والكواكب وغيرها من الظواهر الطبيعية ؟

المذهب الطبيعى

يرجع تأصل هذا المذهب إلى عالمين كبيرين ، هما : " ماكس موللر Max müller " (١٨٢٣-١٩٠٠م) ، و "آدلبيرت كونAdalbert Kuhn " (١٨١٢-١٨٨١م) ؛ فقد نشر الأول كتابه : "الأساطير المقارنة " فى عام ١٨٥٦م ، وأسس الثانى بكتابه " Zur ältesten Geschichte der indogermanen Völker " علم اللغة عند شعوب الهندية – الجرمانية. وهما يتشابهان فى كثير من الآراء التى انتشرت بعد ذلك فى أوساط العلماء مما جعل الدراسات اللغوية تسيطر على من جاء بعدهما ، فاكتسبت قيمة فى مجال علم الأديان. غير أن موللر يعتبر الأب والمؤسس للمذهب الطبيعى فى نشأة الدين ، وقد اعتمد فى بحثه فى هذا المجال على التجربة الحسية ، فهو يقول : " ينبغى أن يبدأ الدين بتجربة حسية ، لكى يأخذ مكانه الذى يرده إلى عنصر مشروع بين معارفنا ، معتمداً فى ذلك على مبدأ تجريبى قديم : لاشىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى التجربة. أخذ هذا المبدأ وطبقه على الدين ، وقرر أنه لاشىء يتحقق فى عقيدة الإنسان ، ما لم يكن قد أتى قبل عن حواسه . أو بمعنى أدق : إن الإيمان هو ما وقر فى القلب ، ولكن هو أولاً ماصدقته الجوارح ". [٦٦]

يرى بعض العلماء أن الإنسان الأول نظر إلى الطبيعة ، فهاله مايرى من قوة جبارة ، تبدو أمام عينيه هنا وهناك ، وحيَّرته قوى الطبيعة الكبرى ، كالشمس ، والرعد ، والبرق .... وغيرها، فظن أن هذه القوى الساحرة الغلابة مستقلة عن إرادة البشر ، بل إن البشر يخضع لها عن طريق تأثيرها فى جميع نواحى الحياة ، فهى التى تعطيه متطلبات حياته : من ماء ، ودفء وثمار .... كما أنه توجس خيفة من غضب الطبيعة ، وزمجرتها : رعداً ، وبرقاً ، وريحاً عاتية ، وفيضانات مدمرة ، فأيقن أنه عاجز عن مواجهتها ، فركن إلى عبادتها ، وتقديسها ، وتقديم القرابين إليها ، كى ترضى عنه فتمنحه عطاءها ، وتحميه من شر ظواهرها .

ومن أشهر مقررى هذا التفسير –كما ذكرنا سابقاً – العالم الألمانى "ماكس موللرMax Müller " فى كتابه : "الأساطير المقارنة" ..... وهو لايبنيها على (اعتبارات نفسية فقط) ، بل يستند فيها إلى وثائق لغوية ، استمدها من دراساته المقارنة للأساطير والتماثيل القديمة ، وعلى الأخص من دراسة " الفيدا " (كتاب الديانة البراهمانية) ، حيث وجدأن أسماء الآلهة فيها هى فى الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية

---

[66]) النشار: ٧١

العظيمة ، كالسماء ، والنار ، ونحوهما ، وأن هذه الأسماء بعينها تتشابه حروفها فى سائر اللغات المسماة " بالهندية الأوروبية ". فخلص من ذلك إلى أنه – قبل تشعب الشعوب الإنسانية ، وخروجها من موطنها الأول – كانت هناك لغة واحدة تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى ، فتكون إذاً هى الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات .

فإذا بحثنا عن ظاهرة من ظواهر الطبيعة تجسد لنا هذه النظرية ، فسنجد أن أوضح مثل لهذا هو فكرة النار .....فهناك إحساس طاغ متدفق ألهمته النار أول ظهورها فى الشعور الإنسانى . ظهرت له النار فى صور مختلفة : من شهاب لامع ينقض عليه من أعلى السماء ، من احتكاك حجرين أو غصنين يابسين ، أو على أى صورة كانت ...وكانت تحمل معها أحياناً الموت والدمار ، وأحياناً تقدم له ألواناً من السعادة والحياة الهنية : تدفئه شتاء ، أنارت له الليل ، وعاونته على أكل لحم غير نىء . ثم اتخذ النار بعد ذلك وسيلة لصنع الآلات والأسلحة . بل أصبحت النار شرطاً هاماً لكل تقدم عملى وفنى .

ولم يستطع الإنسان أن يقيم أية علاقات مع الطبيعة وأن يتفهمها بدون أن يستفهم مابعد الطبيعة اللامتناهى . وكل شىء فى الطبيعة يرمز إلى قوة لامتناهية : النهر الذى يجرى ، يظهر القوة اللافنائية ، طالما لم يجف ماؤه ولم يغض. لاشىء فى الطبيعة إلا ويوقظ فينا الإحساس العنيف عن اللامتناهى . هذا الإحساس فى أعماقنا ويسيطر علينا ، وعن هذا الإحساس فاض الدين ونشأ.[٦٧]

فتدين الإنسان الأول يرجع – طبقاً لهذا الرأى – إلى إحساسه بروعة الطبيعة ، وجلال الكون..... مما دفعه إلى الاعتقاد فى أنها تملك قوة مجهولة ، قادرة على فعل المستحيل، فاعتقد فى هذا المجهول[٦٨] ، ورمز له بشىء من مظاهر الطبيعة التى تكشف عن هذه القوة: كالشمس، والقمر ، والرعد ، والبرق ، ....الخ ، وأحياناً النبات كالأشجار والثمار ، فتوجه إليها بالعبادة ، وأقام لها الطقوس ، وقدم لها القرابين .

ويُعْتَرَض على هذا بأنه لو كان منشأ الدين هو النظر إلى جمال الطبيعة وجلالها ، لكان يجب أن يوجه التقديس أول كل شيء إلى القوى الكونية العظمى : إلى الشمس ، والقمر : والبحر ، والجبال ، والرياح ،

---

[67] المصدر السابق : ٧٣-٧٤

[68] ومصداقاً لهذا الرأى يرجح موللر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده ، لأنه أحس بروعة المجهول ، وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه فى الكون وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فهى محور الأساطير والعقائد ، كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات .

وأشباه ذلك ؛ لا إلى محقرات الأمور من أنواع النبات والحيوان ، التى هى – كما يرى أصحاب هذه النظرية – أقدم من تلك فى توجه الإنسان إلى عبادتها .

غير أن هناك رأياً يقول : إن عبادة الطبيعة انبثقت من عبادة الأسلاف التى بيناها سابقاً ، ويعلل أصحاب هذا الراى ذلك ، بأن الناس فى المجتمعات البدائية تعودوا على إطلاق " أسماء حيوانات ، أو نباتات ، أو نجوم على كل فرد إبان مولده ، أو بعد ذلك ، فامتزجت هذه الأسماء بشخصيات مَنْ أُطلق اللفظ عليهم. وساعد على هذا غموض اللغات البدائية ، وعدم تمييزها بين المجاز والحقيقة. ثم تعاقبت الأجيال ، ولم يميز البدائى بين المعنى المجازى لهذه الألفاظ والمعنى الحقيقى ، فَعَبَدَ الأسلاف ، وعَبَدَ كل ما يتصل بهم من أسماء وأشياء . فالسبب الحقيقى إذن فى نشأة عبادة الطبيعة هو تفسير الألفاظ المجازية كما هى". [69]

نقد النظرية

يرى دوركايم أن الإنسان حقيقة يتجه نحو الطبيعة محاولاً تفهمها ، ويتأمل فى الكون محاولاً تفسيره. ولكن هل يمكن القول : إن الفكر الدينى نشأ عن هذه التأملات؟ إن الإنسان يتأمل فى الطبيعة لكى يستطيع أن يتحكم فيها، أو يؤثر فيها بشكل خاص . إذا سرنا مع سياق هذا المذهب الطبيعى ، لرأينا أنه إذا كان الإنسان قد عبد الظواهر الطبيعية ، وقدم إليها الصلوات والقرابين والضحايا ، فإنه إنما قد فعل هذا لتحقق له مايرتئيه من غايات وأغراض . ولكن هل يستطيع البدائى أو غير البدائى أن يتحكم فى الظواهر الطبيعية ، فيستطيع أن يشكلها كما يشاء ؟ يحس أن العاصفة ستقبل ، فيصلى ، ويضحى ... يقوم بكل الطقوس المطلوبة . فهل تكف العاصفة عن الهبوب؟ سيتبين له بعد قليل أن كل ماقام به من طقوس دينية لم تنجح أى نجاح فى رد العاصفة ، وحينئذ يتبين له مافى أفعاله من عبث ، ومافى التوجه نحو عبادة الطبيعة من خطأ.....ويستمر دوركايم فى نقده للمذهب الطبيعى فى نشأة الدين ، فيقول : إن أهم ما يميز ظواهر الطبيعة هو نظامها . فنظامها راتب على نسق واحد لا تخلف فيه : تشرق الشمس من الأفق كل صباح ، وتختفى كل مساء ، يكمل القمر دائرته كل شهر ؛ يجرى النهر بشكل راتب لاينقطع ؛ الفصول نفسها تحدث وتمضى وتعود . حقاً قد يحدث بعض النشاز فى تلك الدورات المنتظمة ، كسوف الشمس وخسوف القمر.... غير أن هذه الإحساسات العابرة لاتولد إلا إحساسات مؤقته ثم تنتهى ، ولا يمكن على الإطلاق

---

[69]) النشار : صـ ٤٠

أن تستخدم تلك الإحساسات أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة . إن سياق الطبيعة فى العادة سياق منتظم متناسق ، والتناسق لايوحى على الإطلاق بالمشاعر القوية المتفجرة . وإن من الخطأ البين أن ننسب إلى البدائى القدرة على التفكير والتأمل فى تلك المظاهر المتناسقة الراتبة واستكشاف العجائب فى هذا النظام البديع . ثم إنه لايكفى على الإطلاق أن نعجب بشىء لكى نعتبره مقدساً . إنما ينبغى أن نميز تمام التمييز بين انفعالات الدهشة والعجب وبين الشعور الدينى .[70]

واستبعد بعض الناقدين أن يكون النظر فى صحيفة الكون سبباً فى إيقاظ الشعور الدينى العميق ؛ فقال: إن استمرارها على نسق واحد يجعلها أمراً مألوفاً ، لايلفت النظر ، ولايحتاج إلى تعليل . وعلى فرض أنها تبعث الدهشة والخشوع فى نفوس المفكرين ، فليس لها هذا الأثر فى تلك العقول الساذجة .[71]

لقد بُنِىَ المذهب الطبيعى على مجموعة من المسلمات اللغوية المختلفة ، وقام على دراسة عميقة للغات الأوربية الهندية ممثلة على الخصوص فى الفيدا. وقد انبرى جماعة من علماء اللغة يناقشون كثيراً من آراء ماكس موللر ، وخاصة فكرة توافق الأسماء التى تدل على الآلهة وتطابقها فى اللغات الأوربية ، منكرين التفاسير المختلفة التى وضعها محاولاً بذلك ارتباط اللغة (فى مجال الطبيعة) بنشأة الدين .

غير أنه لما كانت الديانة بمعناها الحقيقى لاتوجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات حية عاقلة ، فعالة ، يُتَوجَّه إليها بالعبادة ، لزم السؤال عن سبب هذا التطور الفكرى: من النظر فى مشاهد الطبيعة ، إلى التفكير فى تلك الكائنات الروحية .

يجيب ماكس موللر : بأن هذا من أثر اللغات نفسها ، لأنها فى العادة تنسب لكل ظاهرة فعلاً يشبه أفعال الإنسان ، فنحن نقول: إن النهر "يجرى" ، والشمس " تطلع " ، والهواء " يئن " و يزمجر " ، والنار

---

[70]) المصدر السابق صـ ٨٦- ٨٧

[71]) هنا يحسن التنبيه إلى أن أكثر الباحثين يقررون الفرق بين العقول المستنيرة والجاهلة على هذا الترتيب ، ويرون أن هذا الشعور الرهيب ، الذى يدعو إلى تعليل الظواهر الكونية بقوى سرية عظيمة تحدثها ، إنما يخالط العقول الفطرية التى لم تتمرس بالعلم الطبيعى وقوانينه . ولاشك أن تقرير الفرق على هذا النحو أقرب إلى الفهم من مقابله ، ولكنه لايقل عنه خطأ ، إذ الواقع المشاهد هو أن العلم لايضعف هذا الإحساس بل يزيده قوة . وناهيك بكلمة الفيلسوفين : " باسكال Padcal " و " كانت Kant " حيث يقول أولهما : " إن هذا الصمت الأبدى لذلك الفضاء اللانهائى ليقذف فى قلبى روعة ورهبة " " Le silence eternel des espaces infinis m´effrai" ويقول الآخر : " شيئان يملآن قلبى إعجاباً وإكباراً يتجددان وينموان كلما أعملت فيهما تأملى: السماء المزدانة بالنجوم من فوقى ، وقانون الأخلاق فى ضميرى" : " Deux cehoses remplissent le coeur dune admiration et d une vénération toujous nouvelles et toujours croissantes, á mesure que la réflection s y attache et s y applique:le ciel étoilé au-dessus de moi, et la morale en moi" [دراز : ١٢٤]

" تشهق أو تزفر " ..... إلى غير ذلك : فهذه التعبيرات التى كانت فى أصلها تعبيرات مجازية تشبيهية ، طال بها الأمد حتى أخذت على حقيقتها ؛ فصارت هذه العناصر نفسها تأخذ فى الأذهان صورة الكائنات الحية المفكرة ، ومن هنا نشأت عادة تمثيل الأفلاك ، والعناصر فى رموز مجسمة على صورة الحيوان ، أو الإنسان. ولعب الخيال فى ذلك دوراً هاماً : فكان تارة يرمز إلى الشيئ الواحد بتماثيل مختلفة ، على عدد ماله من أسماء ، وتارة يرمز إلى الأشياء المتعددة التى يجمعها اسم مشترك باعتبارها حقيقة واحدة ، تتحول من نوع إلى نوع ..... وهكذا." [72]

وخلاصة القول :

نشأت عبادة الآلهة عند الإنسان الأول من اعتقاده فى وجود الروح ، وتوصل إلى هذا عن طريق ما يراه فى منامه . توصل من ذلك إلى عبادة الأسلاف ، لأنه اعتقد أن أرواحهم لاتموت ، وأنها قادرة على إيذائه ، كما تستطيع أن تقدم له خدمات كثيرة ، إذا هى رضيت عنه .

وهذا يسمى بالمذهب الروحى

انبثقت عبادة مظاهر الطبيعة المختلفة من هذا الاعتقاد ، فبعضهم يرى أن سببها نفسى . وهو الإحساس بروعة الطبيعة وظواهرها فدفعه ذلك إلى عبادتها . والبعض الآخر ذهب إلى أن عبادة الروح هى أصل عبادة الطبيعة ، سواء كان ذلك عن طريق الاعتقاد فى روح مجهولة تحرك هذه الظواهر ، أو عن طريق أن الأسلاف كانوا يُسَمَّوْن بمسميات مفردات الطبيعة ، فعبد الإنسان الأسلاف بمسمياتها ثم نسى الأسلاف، وعبد المظاهر الطبيعية التى تسمى بهذه الأسماء .

وهذا يسمى بالمذهب الطبيعى

وهناك من قال : إن نشأة عبادة الطبيعة راجعة إلى الاستعمال اللغوى ، إذ من المعروف أن الإنسان ينسب لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية فعلاً يشبه أفعال الإنسان مثل: " النهر يجرى ، والشمس تطلع ..... الخ " فلما طال الأمد على هذه التعبيرات المجازية أُخِذَت على حقيقتها، فظن الإنسان بعد ذلك أن هذه الظواهر المنسوب إليها الأفعال كائنات حية مفكرة ، فتوجه إليها بالعبادة إتقاءً لشرها ، أو طمعاً فى مساعدتها له فى مجالات الحياة المختلفة.

---

[72]) المصدر السابق: ١٢٠ -١٢١

المذهب الاجتماعى

التوتمية [٧٣]

يرجع الفيلسوف الفرنسى – هنرى برجسون – بالعقيد الدينية إلى مصدرين : أحدهما اجتماعى لفائدة المجتمع ، أو فائدة النوع كله ، والآخر فردى يمتاز به آحاد من ذوى البصيرة والعبقرية الموهوبة .

فالحاسة الدينية الاجتماعية هى "حيلة نوعية" يلجأ إليها خيال النوع الإنسانى لكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال ، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده خدم نفسه وأطاع لذته ، ولم يحمل الألم ، ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه . ولما كانت إرادة الحياة مستكنة فى النوع ، كما هى مستكنة فى آحاده على انفراد ، نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها برجسون بملكة الخرافة الرمزية ، أو ملكة الأساطير ، وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذى يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه . فاعتقد الجزاء بعد الحياة ، وأحس أنه محاسب على الإضرار بغيره ، مثاب على الخير الذى يسديه إلى أبناء نوعه ، واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع ، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين . [٧٤]

ويرى دوركايم أن التدين وليد أسباب اجتماعية ؛ إذ يزعم أن عناصر التفكير ، وأسس المعرفة العقلية نفسها ، ماهى إلا صور ولدتها الجماعة وطبعتها على غرار النظم الاجتماعية ، وأن العقيدة الأولى التى انبثقت منها الأفكار الدينية هى مايسميها علماء الأجناس بالمذهب التوتمى . [٧٥]

---

[73] جرت عادة كثير من المعربين أن يقلبوا التاء فى الكلمة الأعجمية طاء ، فيقولوا مثلا " ميطافيزيقا" بدلا من " ميتافيزيك" . وعلى هذه الطريقة كتب بعض الباحثين ، ومنهم جورجى زيدان وسلامة موسى ، كلمة "الطوطمية" وكلمة "الطوطم" بالطاء . وبعضهم كتبها بالتاء : توتمية ، وتوتم .

[74] العقاد : ٢٢

[75] أول كتاب ظهرت فيه كلمة "توتم totism " كتاب إنجليزى ألفه جون لنج John Long الذى كان يعمل ترجماناً فى شركة الهند Compagnie des Indes وطبع فى لندن سنة ١٧٩١م تحت عنوان " أسفار ورحلات لترجمان هندى Voyages and Travels of an Indian Iterpreter " وقد تضمن هذا الكتاب إشارات مقتضبة إلى هذه الديانة ومشتملة على عقائد وشعائر وما كان لها من أثر بين عشائر الهنود الحمر .

ومن ذلك الحين عكف العلماء على دراسة هذه الديانة وتحليل عناصرها ، والبحث عما تقوم عليه من أصول . ولكنهم ظلوا فى مبدأ أمرهم يظنون أنها مقصورة على السكان الأصليين لأمريكا ، وظلت بحوثهم قائمة على هذا الظن ، حتى كشف الرحالة الإنجليزى " جراى Grey " فى كتاب له ظهر سنة ١٨٤١م تحت عنوان " غربى استراليا وشمالها الغربى North-west and Western=

=Australia " أن الديانة نفسها منتشرة بين السكان الأصليين لاستراليا . فاتسع بذلك نطاق بحوثهم ، وتكونت لديهم فكرة صحيحة عن مدى انتشار هذه الديانة ، وظهرت لهم منها أشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل .

ثم تبين لهم فيما بعد أن لهذه الديانة رواسب وأشباهاً ونظائر فى كثير من ديانات العالم القديم نفسه وفى كثير من عادات شعوبه وتقاليدها . فقد كشف العلامة "ماك-لينان Mac-Lenan " فى مقالات نشرها فى مجلة "Fortnightly Review " فى أعدادها الصادرة من سنة ١٨٦٩م إلى سنة ١٨٧٩م عن هذه الرواسب والأشباه والنظائر فى كثير من ديانات العالم القديم ، وخاصة ديانات اليونان والرومان ، بل ذهب إلى أبعدمن ذلك فقرر أن كل مايتصل بتقديس الحيوان والنبات فى الديانات الإنسانية يرجع إلى أصل توتمى . وجاء من بعده العلامة " روبرتسون سميث Robertson Smith " فكشف فى بحوثه فى " القرابة والزواج عند العرب فى الجاهلية " وفى " ديانة الساميين " = " Kinship and Marriage in Early Arabia ,The Religion of the Semites " عن آثار الديانة التوتمية ورواسبها عند الشعوب السامية. وظهر لكثير من المشتغلين بدراسة الحضارة المصرية القديمة " Egyptologues " عدة رواسب من التوتمية فى عقائد قدماء المصريين. وجاء من بعد هؤلاء جميعاً العلامة " فريزر Sir Jagems Frazer " فكشف فى كتابه الخالد " الغصن الذهبى The Golden Bough " عن الآثار التى تركتها الديانة التوتمية فى العقائد والعادات الشعبية الأوربية " الفلكلور Folklore " . وكشف كثير من الباحثين عن عدة رواسب من التوتمية فى شمال إفريقيا ووسطها وشرقيها وفى مدغشقر وجزر الملايو وبولينزيا وأندونيسيا والفلبين والهند الصينية والصين والهند وفى مواطن أخرى كثيرة فى الدنيا القديمة .

وقد اتسع نطاق هذه الدراسات نوعاً ما بفضل البحوث التى قام بها المكتب الأمريكى لدراسة الشعوب " Bureau American d`Ethnologie " وبفضل البحوث التى قام بها العلامة الأمريكى " لويس مرجان Lewis Morgan " فى كتابه الخالد عن " المجتمعات البدائية Ancient Society " الذى ظهر سنة ١٨٧٧م . ونقول " نوعا ما " لأن هذه الدراسات كانت إلى ذلك الحين ناقصة من كثير من الوجوه ؛ وذلك أنها لم تتعرض إلا لطائفة محدودة من عشائر السكان الأصليين لأمريكا واستراليا ، ولم تعالج إلا بعض مظاهر من الديانة التوتمية . وقد جمع العلامة فريزر خلاصة هذه البحوث فى مؤلف صغير ظهر فى سنة ١٨٨٧م تحت عنوان " التوتمية Toteism " اقتصر فيه على وصف هذه المعتقدات بدون أن يحاول شرحها وتحليلها .

وأول دراسة مفصلة وافية لهذه الديانة هى الدراسة التى قام بها " بلدوين سبنسر وجيلين Baldwin Spencer and Gillen " فقد أقام هذان الباحثان مدة طويلة بين عشائر السكان الأصليين لوسط أستراليا وشمالها ، ودرسا نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التوتمية دراسة عميقة ، وضمنا دراستهما هذه كتابين كبيرين : ظهر أحدهما بعنوان " قبائل السكان الأصليين لوسط أستراليا The Native Tribes of Central Australia " ، وظهر الآخر بعنوان " قبائل السكان الأصليين لشمال أستراليا الوسطى The Northern Tribes of Central Australia "

وجاء من بعدهما العلامة " كارل سترهلو Carl Strehlow " فأقام مثلهما مدة طويلة بين العشائر الأسترالية الشمالية ، وأجاد لغاتها ، وألف فى نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التوتمية بحوثاً قيمة دقيقة جاءت مؤيدة فى كثير من مواطنها لما وصل إليه سبنسر وجيلين فى كتابيهما السابق ذكرهما .

وما قام به سبنسر وجيلين وسترهلو من دراسات مفصلة للقبائل الأسترالية الشمالية قام بمثله الإنجليزيان " فيزن وهويت Fison and Howitt " بصدد القبائل الجنوبية . وقد ظهرت خلاصة هذه الدراسات فى كتابيهما عن " كاميلارار وكرنى Kamilaroi and Kurnai " الذى ظهر سنة ١٨٨٠م وفى كتاب هويت عن السكان الأصليين لجنوب أستراليا " The Native Tribes of South Australia " الذى ظهر سنة ١٩٠٤م وفى كتب أخرى كثيرة له .

تعتبر مشكلة الطوطمية من أهم وأطرف المشاكل التى عنى بها الأنثروبولوجيين ، وقد خصص لها فريزر نفسه كتابه المشهور عن "الطوطمية والزواج الاغترابى" . ولكن على الرغم من كثرة استخدام الكلمة، فكثيراً ما يقع الكتاب فى الخطأ فى فهم مدلولها وخصائصها . وكلمة "طوطم Totem " نفسها مستمدة من كلمة شائعة عن هنود الإجبواى ، وإن كان النظام الاجتماعى الذى يرتبط بها يختلف من مجتمع لآخر مع وجود بعض عناصر أساسية مشتركة . ومع أن الكلمة تشير إلى علاقة معينة بين الإنسان والحيوان تستتبع قيام معتقدات وممارسات ذات طابع دينى ، فليس كل علاقة من هذا النوع تشير إلى وجود النظام الطوطمى . وأهم خصائص الطوطمية هى :

أ. ارتباط النظام الطوطمى بالتنظيم العشائرى الذى تنقسم فيه كل قبيلة إلى عدد من العشائرالمتمايزة .

ب. اعتقاد كل عشيرة بأن أفرادها ينحدرون من صلب طوطم معين (هو فى الأغلب فصيلة معينة من الحيوانات ، وإن تكن هناك طواطم نباتية ، وفى أحيان قليلة طواطم من الجمادات) يكون بمثابة السلف الأول والمؤسس الحقيقى للعشيرة ، وبذلك يصبح معبوداً لهم .

= وفى ضوء هذه الدراسات الوافية أعاد فريزر النظر فى كتابه الأول عن التوتمية ، فأصلح ما كان فيه من خطأ ، وأكمل ما كان فيه من نقص ، ووسع نطاق بحوثه حتى شملت معظم مظاهر الديانة التوتمية وما قام عليها من نظم اجتماعية ، وعنى بشرح هذه المظاهر والنظم وبيان أصولها ووظائفها والعلاقات التى تربطها ببعض وأخرج كتابه فى هذا الوضع الكامل سنة ١٩١٠م فى أربع مجلدات كبيرة تحت عنوان " التوتمية والإجزوجامية (الإجزوجامية هى النظام الذى يحرم بمقتضاه على رجال العشيرة أن يتزوجوا من داخل عشيرتهم) Totemism and Exogamy " . ويعد الآن هذا الكتاب أهم مرجع للباحثين فى الديانة التوتمية وما تنطوى عليه من عقائد ويقوم عليها من نظم وأوضاع .

وجاءت من بعد هؤلاء جميعاً المدرسة الاجتماعية الفرنسية " L`Ecole Sociologique Française " فعنيت بدراسة هذه الديانة عناية كبيرة ، وحللت عناصرها تحليلاً دقيقاً ، وكشفت عن كثير من حقائقها الهامة التى خفيت عن أنظار الباحثين من قبلها ، ووضحت العلاقة بينها وبين أصول الحضارات والنظم الإنسانية على العموم . ويرجع أكبر قسط من الفضل فيما وصلت إليه بحوث هذه المدرسة من شأو رفيع فى هذه الميادين إلى الدراسات التى قام بها رئيسها العلامة " دوركايم Durkeim " فى كتابه الخالد عن " الأصول الأولى للحياة الدينية ممثلة فى النظم التوتمية الأسترالية Les Formes Elèmentaires de la Vie Religieuse. Le Système totèmique en Australie " وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩١٢م ، ثم أعيد طبعه بعد وفاة مؤلفه سنة ١٩٢٥م فى نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير .

وعلى غرار دوركايم ألف كثير من أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية فى الديانة التوتمية ونظمها وما يتصل بها كتباً قيمة . [على عبدالواحد وافى : الطوطمية ١٠٨- ١١٣]

جـ .الاعتقاد بوجود روابط دم وقرابة بين جميع أفراد الطوطم ، وهذا يفرض قيوداً صارمة على الزواج بين أفراد الطوطم الواحد الذين يحرم عليهم فى الواقع مثل هذا الزواج ، كما أن كل علاقة جنسية بين الذكور والإناث من أعضاء الجماعة الطوطمية تعتبر نوعاً من الزنا بالمحارم .

د . تحريم قتل الطوطم أو الاعتداء عليه بأى شكل من الأشكال ، وإلا أصاب العشيرة كلها – وليس الشخص الجانى وحده – الأذى والمرض والموت ، ولكن يحق لأفراد العشيرة أن يتناولوا لحم الطوطم فى طعامهم فى مناسبات شعائرية معينة بالذات لاكتساب الخصائص المستحبة التى يتميز بها الطوطم .

هـ . استحالة تغيير الشخص للطوطم الذى يتبعه نظراً لعلاقات الدم القوية بينه وبين طوطمه علاوة على العلاقة العشائرية .

و . العلاقة ليست قائمة بين فرد معين وحيوان معين بالذات (أسد معين أو تمساح معين مثلاً) ، وإنما بين العشيرة ككل وجميع أفراد فصيلة معينة بالذات من الحيوانات (جميع الأسود أو جميع التماسيح).

ز . وقوع التزامات معينة على جميع أفراد الطوطم الواحد بضرورة التماسك والتضامن حتى وإن لم يكن يعرف بعضهم بعضاً. فكل شخص ينتمى لطوطم الأسد مثلاً يعتبر أخاً لجميع الأشخاص الذين ينتمون لذلك الطوطم حتى وإن لم تكن بينهم علاقات قرابة فعلية ، كما أن هذه العضوية فى الطوطم تنتقل معه من مكان لآخر بحيث تعرف القبائل المختلفة نسب أى شخص والقبيلة التى ينتمى إليها من مجرد معرفتها للطوطم الذى يتبعه . [٧٦]

وليس التوتم إسماً فحسب ، إنه رمز أيضاً ، وقد ذهب "جراي Grey " إلى أن كل أسرة استرالية كانت تأخذ حيواناً أونباتاً كرمز أو إشارة لها. والأسرة هذه هى العشيرة بعينها . وذهب " Schoolcraft " إلى هذا أيضاً ، وهو يصف تواتم الهنود فى أمريكا الشمالية ، فقد رآى أن التوتم عندهم رمز أو إشارة كتلك الرموز التى تتخذها الأمم المتحضرة الآن ، أو يشير إلى أصل الأسرة . ويرى هذا العالم أن التحليل اللغوى للكلمة يثبت هذا ، فكلمة " Totem " مأخوذة من "Dodaim " ، وهى تشير إلى القرية أو موطن الجماعة

---

[76]) أحمد أبو زيد : فريزر : هامش صفحتى ١٢٣ – ١٢٤

الأسرية . ولما اتصل هنود أمريكا بالأوربيين ، وارتبطوا بمعاهدات ، كانوا يلجأون إلى التوتم ، لكى يختموا به المعاهدات .

وكان التوتم يرسم وينقش على كل شيء : على الأسلحة ، وعلى جدران الأكواخ ، وعلى كل مالديهم من متاع . وكانوا ينظمون شعورهم – قبل ذهابهم إلى القتال – على نسق التوتم ، وكانوا يحملونه معهم إلى القتال ، وكانوا يدافعون عنه أعظم دفاع .

ولما تقدمت القبائل قليلاً ، وسكنت البيوت نقشوه على الحوائط وعلى الخشب . وقد امتزج فى ذلك الوقت بأشكال إنسانية ، وصُوِّر بصور مرتبة فيها بعض الزهاوة . وفى بعض القبائل لم يكن ينقش إلا أمام بيوت الرؤساء والأغنياء . وقد حدث هذا فى المجتمعات الأمريكية ، أما المجتمعات الاسترالية فلم تتقدم ولم يحدث فيها هذا الفن الذى انبثق عن الدين ، إلا بشكل ضئيل لايذكر .

ولم يقف الأمر على رسم التوتم على الأشياء الخارجية ، بل رسموه على أجسامهم . إنه لم يعد رسوماً على الأمكنة والحوائط والقبور .إنما أصبح جزءًا منهم لاينفصل عنهم ، فهوهم ، وهم هو .

نصل من هذا إلى أن أعضاء العشيرة كانوا يحاولون التشبه بالتوتم فى مظهرهم الخارجى – من ناحية – وكثيراً ماكان يحدث فى أعيادهم الدينية أن يعطوا لأنفسهم صوره ، أو أن يحملوا أعضاء من الحيوان أو النبات الذى يرمز إليه التوتم . فإذا كان التوتم عصفوراً ، وضعوا على رؤوسهم بعض الريش أو بعض أعضائه ، وإذا كان شجرة حملوا بعض أغصانها ، ومن ناحية أخرى حاولوا الاتصال به فى طبيعته ، فطبعوا الرمز التوتمى على أعضاء أجسامهم الداخلية.

بل إن الأمر فاق كل هذا ، فلم يعد الرمز هو كل شيء فى حياة العشيرة فحسب ، يرسم على الجمادات وعلى الأجسام الحية ، بل إنه أيضاً يرسم على الموتى . وبهذا دخل كعنصر أساسى فى طقوس الموت، فقبل أن توارى الجثة التراب ، يرسم الرمز التوتمى عليها أو يوضع معها .

لم يستخلص دوركايم من هذا أن التوتم ليس إسماً ولا رمزاً فقط ، إنه عنصر أساسى فى الطقوس والأعياد الدينية ، وله بجانب طابعه الاجتماعى "ميزة دينية". إن الأشياء تنقسم– بالنسبة إليه – إلى مقدسة وغير مقدسة ، وهو _ أى التوتم – مثال الأشياء المقدسة نفسها. [٧٧]

---

[77]) على سامى النشار : ١٠٣– ١٠٥

الرموز التوتمية

تكلم دوركايم عن ثلاثة أنواع من الرموز :

١. "الشورنجا Churinga " : تتكون من قطع من الخشب أو الحجر المصقول، وأشكالها مختلفة ، ولكنها فى الغالب بيضاوية أو مستطيلة ، وكان لكل جماعة توتمية مجموعة من تلك القطع تتفاوت أهمية ، وعلى كل قطعة منها كان يرسم توتم كل جماعة ، وكانت هناك بعض التواتم القليلة لاتحمل أى رسوم ظاهرة . وكانت الشورنجا تعتبر أقدس الأشياء ، ولم يكن يوجد شيء يتجاوزها فى القداسة ، إنها كانت تشير إلى مقدس سواء استخدمت اسماً أو صفة ، ولقداستها المطلقة كان لايباح لغير أفراد القبيلة أن ينظروا إليها . كما أنه لم يكن ينطق باسمها إلا نادراً وبصوت خافت وخلال تمتمات سحرية. وعلى العموم كانت الشورنجا تشير إلى كل الأعمال الطقسية. إنها عبادة الآمو، وقد أشارت كلمة "ilia churinga " إلى هذه العبادة . وفى إيجاز : الشورنجا هى كل شيء مقدس . ولم يكن يباح لغير المتطهرين الذين مارسوا الحياة الدينية كالنساء أو الشبان أن يلمسوا الشورنجا أو أن يروها ، وأحياناً كان يباح لهم أن يروها من بعيد ، ولكن لم يحدث هذا إلا فى ظروف نادرة . وكان يعاقب بالموت النساء اللاتى ترى الشورنجا ، والرجال الذين أظهروا الشورنجا لأولئك النساء .

٢. " النورتونجا Nurtunga " : توجد لدى قبائل "آرونتا Arunta " الشمالية ، ومايجاورها من عشائر ، وهى إما عصا واحدة ، وإما مجموعة من العصى ، تخاط عليها أعشاب نباتية ، ويوضع على الأعشاب ضفائر من الشعر ، وريش الحيوان ، ولم تصنع النورتوجا فى كل الحالات بهذه الصورة ، بل طرأ عليها اختلافات وتكيفات حسبما تقتضيه الحالة الجزئية التى يكون فيها التوتم، فقد كان يوضع فى أعلاها قطعة صغيرة منها ، وأحياناً كانت تأخذ شكل صليب ، أو شكل الحرف اللاتينى T .

٣. " الوانينجا Waninga " : توجد لدى قبائل " آرونتا Arunta " الجنوبية وقبائل " أورابونتا Urabunta " ، وقبائل " لوريتيا Loritja "، ولم تكن لها صورة واحدة أو صورة معينة . وإذا ما حاولنا أن نرجعها إلى عناصرها الأساسية ، لتكونت مما يأتى : عصا طويلة ، تخترقها عصا ، وعصاتان بشكل أفقى ، وتتصل هاتان العصاتان برأس العصا الأخرى بشعر إنسانى .

وقد كانت النورتونجا والوانينجا موضع احترام دينى عميق ، وكان ينسب إليهما ماينسب إلى الشورنجا من تقديس ، وكانا مركز الاحتفال الدينى ، فيرقص أفراد العشيرة حولهما ، وتقام الطقوس . وإذا ما أرادوا إدخال شخص فى الحياة الدينية للعشيرة ، يقام له احتفال خاص ، فيؤتى بالنورتونجا أو بالوانينجا ، ويخاطبونه بألفاظ دينية على ماقدمه من خيرات لاتحصى للشبان ، ثم ينتهى الأمر بتقبيل المريد لها ، وبهذه القبلة يصبح واحداً من العالم المقدس . وقد لعبت النورتونجا دوراً هاماً فى الأساطير . وكان الشبان إذا خرجوا للصيد أو القتال ثبتوا العصا – النورتوجا – فى الأرض ، واستمدوا منها التأييد ، فقد كانت تمنحهم كل شىء .

أما السبب الذى جعل تلك الرموز مقدسة ، فهو أنها تشير إلى التوتم ، والتوتم رمز لايمكن أن يعترض عليه . ويلاحظ أن الشورنجا والنورتونجا والوانينجا مقدسة لأنها تحمل الرمز المقدس ، وهذا الرمز هو الذى يعطى القداسة لأى شىء يرسم عليه . وكان الرمز يرسم أحياناً على أحجار ، كما كان يرسم على الأرض . وكان يرسم بشكل خاص ، وبسائل مقدس هو الدم ، وإذا مارسم ، جلس أفراد العشيرة أمامه فى حالة تعبد شديدة . [٧٨]

فالتوتم هو الشارة أو العلامة التى تتميز بها العشيرة عن غيرها ، وهو الذى يفصلها عن غيرها من العشائر فالتوتم هو رمز للإله وللجماعة . ومن هنا يستنتج دوركايم نتيجة قاطعة أداه إليها مذهبه الاجتماعى، وهى أن الله والجماعة ليست إلا شيئًا واحدًا ؛ فإله العشيرة أو الإله التوتمى لايمكن أن يكون سوى العشيرة نفسها ، غير أنه يصور فى أفكار أو تخيلات عن أنواع محسوسة من النبات أو الحيوانات التى تستخدم كتوتم . فالجماعة إذن أو العشيرة لم تعبد إلهاً ، إنما عبدت نفسها . وأول ديانة فى الوجود هى عبادة المجتمع نفسه ، والدين ليس على الإطلاق فكرة خارجية أو حقيقة علوية ، إنما انبثق من قلب الجماعة وصدر عنها . **ولكن كيف حدث هذا ، وكيف تم فى مبدأ الإنسانية وطفولتها ، ثم سارت عليه الإنسانية بعد ذلك فى مدارجها المختلفة ؟**

يجيب دوركايم عن هذا بأن الجماعة وحدها هى التى تستطيع أن توقظ فى الفكر الإنسانى الإحساس بالإلهى – بما لها من تأثير بالغ على الأفراد – وإذا تمعنا فى أثرها على أفراد الجماعة ، لرأيناه شبيها إلى حد كبير بتأثير الله على المؤمنين به ، إنها تأمر وتنهى ، وتطلب من الأفراد الطاعة العمياء ، وقد رأينا فى مناسبات

---

[78]) المصدر السابق ٢١١– ٢١٣.

عدة ، كيف تسيطر الجماعة على الأفراد ، وكذلك الله . والله أولاً وبالذات موجود ، يتصوره الإنسان فى صور مختلفة ، على أنه قوة عليا أسمى منه كثيراً ، ويوقن أنه متصل بها ويتعلق وجوده بوجودها ، وسواء عبد الإنسان على الإطلاق قوة مدركة محسوسة كزيوس أو يهوه أو قوى مجردة ، فإنه يشعر فى أعماقه أنه إنما يفعل مايفعله ، ويقوم بما يقوم به ، لأن مبدأ إلاهيًا يدفعه ويسيطرعليه . كذلك الجماعة إنما تغرس فينا الإحساس بارتباطنا الدائم بها ، وتعلقنا تعلقاً لاانفصام له بوحدتها ، ومن المؤكد أن ثمت اختلافاً كبيراً بين طبيعة الجماعة وطبيعة الأفراد . وقد تبين للعقل الجمعى بوضوح هذا التباين وهذا الاختلاف الشديد ، فكان على العقل الجمعى إذن أن يلجأ إلى وسائل خاصة به ، لكى يؤثر فينا أثره ، وأن يجمعنا فى وحدته . إنه يأمر وينهى ويحدد ، إنه يأمر بتضحيات قد تصل أحياناً إلى التضحيات بالحياة ، إنه يتطلب الفناء المطلق فى حياته الجمعية . وبدون هذا لاتكون الحياة الاجتماعية ممكنة .

التوتمية أقدم الديانات

ذهب دوركايم إلى أن جميع العقائد التى عرضها فى توضيحه لفكرة التوتمية هى عقائد دينية . إنها تتضمن تقسيم الأشياء إلى مقدس وغير مقدس. ... ويرى أنها أقدم الأديان على الإطلاق ، إنها متصلة أوثق اتصال بالتكوين الاجتماعى للعشائر ، أى بالتكوين الاجتماعى الذى تكون العشائر أساسه . ونحن لايمكننا أن نحدد فحسب بأن التوتم لايقوم بعمله ولايصح إلا فى العشيرة ، إن دوركايم يذهب إلى أن العشيرة – فى أبسط صورها – وهى الصورة الاسترالية ، لايمكن أن توجد بدون التوتم . إن أفراد العشيرة لايجتمعون ولايتصلون ولايكونون عشيرة على أساس المعاشرة أو السكنى أو الدم ، ذلك لأنهم ليسوا بالضرورة يعيشون فى مكان واحد أو من عصب واحد ، إنما قد يكونون متفرقين فى نطاق القبيلة ، فوحدتهم إنما تأتى لاشتراكهم فى اسم أو رمز ، أو بما لهم من نفس العلاقات بمجموعة معينة من الأشياء ، أو بمعنى أدق من أنهم يزاولون عبادة توتمية واحدة . فالتوتمية والعشيرة يمتزجان امتزاجاً تاماً ، ولا توجد واحدة بدون الأخرى . ومن المعلوم أن التكوين الاجتماعى على أساس العشيرة هو أبسط نظام اجتماعى ، ولم يكتشف نظام آخر أقدم منه إلى الآن . وعلى هذا فالتوتمية التى تتصل بهذا النظام أوثق اتصال هى أقدم دين من الأديان .

لم يوافق جماعة من العلماء على هذا الرأى ، وحاول كل منهم أن يبين تشعب التوتمية عن دين من الأديان الأخرى ، وانقسموا فى ذلك إلى قسمين :

القسم الأول : وعلى رأسه "تيلور ، و ويلكن Tylor & wilken " ، يرى أن التوتمية صورة جزئية من عبادة الأسلاف . أما كيف تشعبت هذه الصورة الجزئية عن الصورة العامة للدين ؟ يجيب تيلور بأن فكرة تناسخ الأرواح كانت المعبر الذى انتقل عليه الدين من فكرة عبادة الأسلاف إلى التوتمية . كان الناس يعتقدون فى مبدأ الإنسانية أن نفوس الموتى لاتستمر طليقة غير متجسدة أو متحيزة فى جسم إنسانى ، إنما تعود من جديد لتتقمص جسماً حياً . ومن ناحية ثانية – إذا كانت سيكلوجية الأجناس البدائية لاتضع أى تميز محدد بين الإنسانية والنفوس الحيوانية – فإنه لم يستعص عليها أن تقبل تقمص النفس الإنسانية وتناسخها فى جسد حيوان من الحيوانات ، وقد أورد تيلور فى كتابه " Civilisation primitive " عدداً من الحالات التى تثبت هذه الفكرة . تقمصت النفس الإنسانية الحيوان ، فانتقلت القداسة الدينية التى كان يسوحى بها السلف إلى الحيوان أو النبات وامتزجت به ، ومن ثم أصبح الحيوان شيئًا مقدساً ،وصار موضوع عبادة ، أى أصبح توتماً.

وقد قدم " ويلكن " حالات كثرة توصل إليها – خلال أبحاثه فى أرخبيل الملايو – تثبت أن العقائد التوتمية نشأت على هذه الصورة ؛ ففى جاوة وسومطرة قدست التماسيح ، واعتبرها البدائيون حماة لهم ، ولذلك حرم قتلها وقدمت إليها القرابين . أما سبب هذه العبادة فهو أن الأسلاف قد تقمصت فيها . ويعتبر ملايو الفلبين التمساح جدهم الأكبر ، وكذلك قبائل " البانتو Les Bantous " فى أواسط إفريقيا ، وفى ماليزيا كثيراً مايعلن الأفراد الموهوبون الكبار فى القبائل بأنهم سيتقمصون فى حيوان أونبات معين . وحينئذ يصبح هذا الحيوان أو هذا النبات شيئًا مقدساً لجميع أفراد الأسرة .

القسم الثانى من العلماء : يتزعمه " جفونز Jevons " وملخص رأيه : أدهشت الطبيعة الإنسان الأول وأخافته بما فيه من تقلبات وعدم انتظام فى كثير من الأحيان ، فلكى يتقى غضبها وانتقامها ، رآى أن يحالفها أو أن يحالف بعضها ، وبهذا يضمن معاونتها . وليست هناك فى مجرى التاريخ علاقة وارتباط أقوى من القرابة ؛ فأعضاء العشيرة الواحدة إنما يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ، وهكذا فعل البدائيون مع القوى ألطبيعية . ولما كانت الذات أو الشخصية المفردة غير معروفة فى ذلك الوقت ، فقد تعاقدت العشيرة نفسها على هذه القرابة، ولم تتعاقد مع فرد من أفراد النوع ، وإنما مع النوع الطبيعى كله ؛ ذلك أن الإنسان يفكر فى العالم كما يفكر فى نفسه ، فإذا كان لايدرك نفسه أو ذاته مستقلة عن عشيرته ،

فإنه لايستطيع أن يدرك شيئًا من الأشياء منفصلاً عن نوعه ، وإذن فإن نوع الأشياء الذى ترتبط به عشيرة من العشائر برباط القرابة إنما هو توتم .

نقد النظرية

أورد الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه : " الدين" نقد العلماء الغربيين أنفسهم لهذه النظرية ، فقال :

يقول صاحب النظرية : إنه ينبغى أن تدرس الظاهرة الدينية فى أقدم عصورها ، وأقربها إلى عهد نشأتها ؛ ويقرر أن نظام القبائل والعشائر أقدم وجودًا من نظام الأسر ، وأن قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل ، فهى أحق بأن يقع عليها الاختيار للبحث والدرس .

أما المقدمة الأولى : فإنها وإن كانت مبدأً سليماً فى الجملة ، لمن يعنيه تكملة بحث المسألة من وجهتها التاريخية البحتة ، إلا أن اتخاذ البحث قاعدة عامة تعرف منها حقيقة الدين من حيث هو ، يعد عملاً مجافياً لقانون المنطق السليم . أفيحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر فى أطوار الجنين ، أم وهوبعد فى الأدوار التى تمر بها سائر الكائنات الحية ، قبل أن تتميز أجهزته الخاصة ، وتتعين وظائف أعضائه ، وقبل أن يحيا حياة مستقلة ، وقبل أن تستيقظ فيه ملكات الفهم والبيان وغيرهما ؟ إن تحديد الدين بذلك المعنى الغامض الذى يتلجلج فى صدر الإنسان فى طور طفولته ، وهو بعد لايستبين حقيقة شعوره ، ولاأهداف أعماله ، فساد فى المنهج لايقل عن تعريف الإنسان بالجنين . ولقد أصاب هوفدنج إذ يقول : " إنه ليس من المستطاع دائمًا أن نستقى معلومات كافية من الطبيعة الحقيقة لكائن ما ، من مجرد النظر فى أصل تكوينه ؛ فإن التغييرات والنظم التى تحدث له فى أثناء نموه ، قد تبرز فيه صفات وخصائص ماكنا نرى منها أدنى أثر فى بدايته . إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما ، إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية ". [٧٩]

وأما المقدمة الثانية : وهى أن نظام القبيلة يمثل طورًا تاريخيًا أقدم من نظام الأسرة ، فهى دعوى لاتزال يعوزها الدليل ، بل تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكسها ؛ فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يتبين منها أنها كانت قائمة على النظام الأسرى ، الذى تتضامن فيه أفراد الأسرة فى الحقوق والواجبات ، والذى يتمتع فيه الأب بأوسع السلطات على أعضاء أسرته . وإذا قرأنا الأوصاف التى ذكرها " أرسطو Aristote " و " هوميروس Homère " للشعوب المعاصرة لليونان ، والتى كانت أقرب منهم

---

[79] Hoffding. Ouv. Eité, p. 126.

إلى الفطرة والسذاجة ، نرى أن المعيار الذى كانوا يميزون به هذه الشعوب عن الشعوب المتحضرة هو أنهم ليس لهم مجالس شورى ، وأن كل واحد منهم يتولى الحكم على زوجه وأولاده ...[٨٠]

وكذلك نقول فى المقدمة الثالثة ، وهى أن قبائل أستراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل ؛ فهى أيضا مسألة فيها نظر . وهذا "روبير شميت" من كبار الباحثين ، الذين قاموا بدراسات شخصية دقيقة فى أستراليا، يقرر أن القبائل المذكورة هى أحدث القبائل الأسترالية وأكثرها تقدماً ، وأن أقدم قبائل أستراليا هم سكان حنوبها الشرقى . وهؤلاء لايعرفون نظام الألقاب الحيوانية السالفة الذكر ، وفى الوقت نفسه توجد عندهم عقيدة " الإله الأعلى" بصفة واضحة . على أن اللوحة التى رسمها "دوركايم" نفسه لحياة قبائل الوسط تكفى وحدها للدلالة على أننا أمام أمة قد بعدت عن سذاجة الفطرة ، وقطعت أشواطًا واسعة فى نظامها المدنى والاقتصادى . يبدو ذلك جلياً فيما عندها من قواعد الزواج ، والنسب ، والملكية ، وتنظيم مواسم الصيد وغيرها . بل إن نظام التسمية وحده كان يحتاج فى إنشائه وتثبيته إلى عصور متطاولة للتواضع عليه بين الأمة جيلاً فجيلاً ، حتى وصل إلى الوضع الهندسى الدقيق ، الذى يلاحظ فيه دائمًا أن تقسم القبيلة إلى فصيلتين اثنتين ، لازائد عليهما وأن يكون لقب القبيلة مشتقاً من جنس عام ، وألقاب الفصيلتين من نوعين متقابلين تقابل التضاد تحت هذا الجنس ، ثم تتفرع من كل فصيلة عشائرها المتعددة بألقابها المختلفة كأغصان الشجرة ؛ بحيث لاتشترك عشيرتان قط فى لقب واحد . ولذلك عد علماء هذا الفن نظام الـ"totem " نظاماً مدنياً قضائياً ، اقتصادياً ، أكثر منه نظاماً دينياً [٨١] ؛ بل إن الباحثين "لانج وفريزر Lang and Frazer " لم يريا فيه عنصراً دينياً ألبتة ، وقررا أن فكرة الدين والألوهية تكونت فى هذه القبائل بعيداً عن نظام اللقب الأسرى المعروف.[٨٢]

ونحن نذهب إلى هذا المذهب الأخير ، ولا نرى فى هذه الألقاب والرموز عندهم إلا شعاراً قومياً يعرفهم بأنسابهم ، وينمى فيهم شعور الوطنية ، وباعثة التعاون ، واحترام قانون توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة . فهم لايعبدون تلك الرسوم ولامدلولاتها ، بل لهم معبود روحى يعتمدون عليه فى جلائل أعمالهم ودقائقها ، حتى إنهم ليستلهمونه أو يستخيرونه أو يدعونه ليرشدهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم ؛ كما أنهم فى تحريمهم لبعض المحرمات إنما يستندون إلى روايات دينية متوارثة عن أسلافهم ، ينسبونها إلى أمر الله .

---

[80]) تاريخ القانون لعلى بدوى : ١٥ .

[81]) Von H. Hubert. Introduction à la traduction de Chantepie de la Sussake. Manuel d' Histoire des religions. P. XXXIX

[82]) Durkheim, ouv. Eitè, p. 294.

والعجب أن رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعترف بأن عدداً من قبائل أستراليا قد وصلو إلى فكرة "الإله الأعلى" أو "الإله الأحد" ، وأنه كائن أزلى أبدى تسير الشمس والقمر بأمره ، وأنه هو الذى يثير البرق ، ويرسل الصواعق ، وإليه يتوجه فى الاستسقاء وفى طلب الصحو ، وهو الذى خلق الحيوان والنبات ، وصنع الإنسان من الطين ونفخ فيه الروح ، وهو الذى علم الإنسان البيان ، وألهمه الصناعات ، وشرع له العبادات ، وهو الذى يقضى فى الناس بعد الموت ، فيميز بين المحسن والمسىء....[٨٣] ثم يقرر أيضاً أن هذه العقائد كلها ليست مقتبسة من أوربا كما ظن تيلور ، بل إنها قديمة فى هذه القبائل قبل أن يصل إليها المبشرون الأوربيون ، وأنهم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية ، ترفع فيها الأيدى إلى السماء بالدعاء .

تحريف لا تطوير

يرى الباحثون فى الأديان أن هناك ثلاثة أطوار مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهى دور التعدد Polytheism

ودور التميز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Monotheism

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربٌّ تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور، وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى ، وهو دور التميز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح ، وهى موضع رجاء أو خشية ، يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

---

[83]) Durkheim, eitè, p.412.

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها ، كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية . فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة ، أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية .....

ومن العسير جداً أن نبنى من هذه الأطوار جميعا سلماً متعاقب الدرجات ، لاتتقدم فيه درجة على درجة ، ولا يتلاقى فيه نوعان أو أكثر من نوعين من المعبودات ؛ فقبائل الهوتو الإفريقية التى لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم – ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر!!– تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء .

إن نظريات علماء الأديان فى أصل الدين وتطوره ينقضها ماتوصل إليه الباحثون من أن الإله الأعلى كان معروفاً منذ القدم لدى القبائل البدائية . والدليل على ذلك مارواه الرحالة عن القبائل الإفريقية من اعتقادهم فى قوة عليا هى التى خلقت هذا الكون، وإيمانهم بأن الروح لاتموت ؛ "إذ فكرة الإله الأعلى تكاد أن تكون موجودة لدى جميع القبائل"[84] ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية : الحضور ، والذاتية: الاكتفاء ، والشاملة : القدرة ، نجده بين كثير من القبائل الزولو بجنوب إفريقيا ، والبايراواندا ، والأشاتى بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبا بنيجيريا ، والبركونجو بأنجولا ، والنجومبية بجمهورية الكونغو.....

على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام ، وهم – كما يقولون – أقدم سلالات إفريقيا ، كائناً أعلى يطلقون عليه اسم مونجو . وهم يلتمسون منه الفوز بالصيد . كما لايأكلون بكر الثمار قبل أن تُطْرَح فى الغابة باسم مونجو ، ويقول القزم حين يطرحه : "مونجو هذا لك" . ويخصص بكر المحصول له ، لأنه خلق أشجار الفاكهة ، وساعد على نضج ثمرتها . وإلى هذا الكائن يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء ، وأنها ترجع إليه .

---

[84]) راجع مندلسون صـ ٨

وفى قبائل يوروبا فى غرب نيجيريا يطلق على الإله الخالق : الأب ، والسيد ، والعظيم ، مالك النفس، أو الروح ، وأصل العظمة ، ويعتقدون أنه خالق كل شيء ، والقاضى على الناس ، الآن وبعد الموت، المحافظ على القوانين الأخلاقية . ويعتقد اليوروبى أن روحه يجب أن تقدم حساباً للإله عن أعمالها الدنيوية ، وأن المحسن يذهب إلى جنة الخلد ، والمسيء يذهب إلى أكمة القاذورات .

ويرى بعض الجالا بالحبشة أن الله أتى ذات مرة من السماء ، وأنه تخاطب مع الجنس البشرى ، فى حين يعتقد الجيكويو من كينيا أن الله حينما يأتى من السماء يستقر على جبل كينيا وأربعة جبال أخريات . وإذا ذكرنا تقديم الأقزام لبكر المحصولات والصيد وغيرها إلى إلههم مونجو ، فلا بد أن هذا يذكرنا بدوره بالممارسة نفسها فى ديانة "بعل" ، بل لعله يذكرنا أيضاً بما أمر الله به سيدنا إبراهيم بأن يقدم له ابنه البكر قرباناً. وواضح مدى تشابه الأساطير مع ماورد فى العهد القديم عن سيدنا موسى ومخاطبته الله فى سيناء . كما أن هناك رواية من قبائل تشاجا بتانزانيا تحكى أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكهم فيما عدا قلة، وجلى مدى التشابه بين هذه الرواية ، وقصة سيدنا نوح . ويروى البامبوتى والتشاجا والميرو كيف أن الرب حَرَّمَ أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض وعزل الرب نفسه عن الإنسان . ولانحتاج هنا إلى التذكير بقصة سيدنا آدم عليه السلام .

وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أم بآخر ،كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته فى عالم الأرواح ، واتصاله بأقاربه الأحياء ، بل استمرار رعايته لهم كما كان حال حياته . ومن هنا جاءت الفكرة الشائعة الخاطئة عن عبادة الأسلاف – التى رأى فيها بعض العلماء خطأً أنها صورة من صور الأديان البدائية ، ففهموا أنها أصل الدين قبل التطوير – ، وهى فى الواقع ليست أى نوع من العبادة فى جوهرها ، ولكنها ، كما كانت عند قدماء المصريين ، فكرة استمرار حياة الروح بعد الوفاة فى عالم الأرواح ، أو هى بمعنى آخر امتداد زمنى للحياة الأرضية بجميع مظاهرها ، مما أدى إلى تقديم طعام وشراب للروح ، وأدى هذا بدوره إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الديانات الإفريقية نوع من عبادة الأسلاف .

على أن الديانات التقليدية من ناحية أخرى ترى أن الله أسمى من أن يتصل به بشر رأساً ، وإنما يكون اتصالهم به عن طريق أرباب أدنى منزلة وكَّلهم الله بشئون الحياة المختلفة. فالله ، من وجهة النظر الغالبة فى هذه الديانات ، خلق الكون بأكمله ووهبه الحياة ، ووضع نواميس الطبيعة ، ولكنه لايمكن الاتصال به ، فى الطلبات اليومية للبشر ، إلا عن طريق أرباب أو أرواح ، وقد تكون بعضها من أرواح الأسلاف . وكل

رب أو روح ، يختص بعمل معين على الأرض ، فهنالك مثلا روح النهر ، أو رب الغابة ، والمطر ، والصيد ، والزرع وما شابه . وإلى هذه الأرباب أو الأرواح يكون الاتجاه أولاً.

كثير من الإفريقيين لاينسون اسم إلههم الأعلى – مقدماً على توسلهم للأرباب الأخرى فى مسائل حياتهم اليومية – ، فهم يذكرون اسمه حينما يستعدون للنوم ، فيقولون : " نرجو الله أن يوقظنا فى صحة ، وحينما يستيقظون ، يقولون : " نرجو الله أن يرزقنا غذاءنا ". إنهم يعتقدون فيه وفى أن وجوده وحضوره حقيقى وعظيم . لماذا إذًا لايعبده الإفريقيون وحده ؟ إن الإجابة الصحيحة عن هذا تلوح من وجهة نظر الإفريقيين أنه من الغباء إهمال القوى الأقل شأناً ، لأنها أكثر قرباً ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالى يمكنها أن تسبب متاعب أكثر من الله العظيم ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة فى حالة الأزمات .[85]

وعلى هذا فإن الديانات الإفريقية التقليدية كلها تجمع على وجود إله واحد... وأن هذا الإله هو إله سامٍ ومتفرد بصفة الخلق ، وذلك هو ماجاءت به الأديان السماوية . أما اعتقاد البدائيين فى أرباب أخرى تلبى حاجاتهم اليومية فهو تحريف دخل على العقيدة أثناء الفترات بين الرسل ، ونرى شبيهاً بذلك – فى الممارسات وليس فى الاعتقاد – فى المجتمعات المعاصرة التى تؤمن برسالات سماوية ، حيث يتوسل كثير من المؤمنين بأفراد من البشر أضفوا عليهم أوصافاً عدة ، وصلت فى بعض الحالات إلى مايقارب أوصاف الأرباب عند البدائيين .

* * *

[85] جاك مندلسزن ٨ وما بعدها.